نشأة القاهرة وامتدادها فى ايام الأيوبيين

بقلم

د . عبد الرحمن زكى

١ — القاهرة فى أيام الفاطميين
(٩٦٩ — ١١٧١)

بعد أن نجح الخليفة المعز لدين الله فى دولته الإفريقية التى أسسها جــده أبو عبيد الله ، ومن حدودها إلى ساحل الأطلسى ، عزم على فتح مصر ، وكان أبوه وجده قد حاولا الاستيلاء عليها فلم يفلحا . فلمــا تولى المعز الحكم أراد أن يحقق أمنيتهما ، وكانت مصر فى ذلك الحين عرضة للغزاة ، فقد عمت فيها الاضطرابات الداخلية والمجاعة التى سببها انخفاض النيل والطاعون .

وكان المعز لدين الله ملما بحالة البلاد بعدأن اتصل به يعقوب بن كلس اليهودى الذى هاجر من مصر .

طلب الخليفة المعز إلى قائده جوهر الصقلى أن يضع الخطط العســكرية ويجهز حملة لفتح مصر ، فحشد مائة ألف رجل مجهزين بالمعدات والدواب وأرسل معهم المؤن والعتــاد وكل مايحتــاجه هــذا الجيش الجرار . وبدأت الحملة مسيرها من القيروان فى ١٤ ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ (٥ فبراير ٩٦٩) ، فوصلت إلى

الإسكندرية واستولى جوهر عليها . ثم واصل زحفه إلى الجيزة فوقعت فى يده فى ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٦ يوليو [١]) وعبر النيل بالقرب من منية الشلقان وهزم الجيش الذى أعـــد للدفاع على الشاطئ الشرقى للنيل . وفى أعقاب ذلك دخلت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر مدينة الفسطاط عند منيب الشمس وعسكرت فى السهل الرملى الواقع إلى الشمال ، وكان يحد هـــذا السهل من الشرق جبل المقطم ومن الغرب الخليج [٢] الذى يصل بين شمالى الفسطاط ومدينة هليوبوليس القديمة ، وينتهى عند القلزم على البحر الأحمر . وكان السهل المذكور خاليا من المبانى إلا بضعة مبان ملحقة ببساتين كافور الإخشيد ، ودير فسيح اسمـــه دير العظام وكان يشغل مـكان مسجد الأقمر حصن صغير يسمى قصر الشوك .

تأسيس القاهرة

وفى مساء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ ، اختلط جوهر موقـع القصر الذى قرر أن يستقر فيه للمعز تنفيذاً لأوامر سيده وحينما أتى أعيان الفسطاط فى الصباح التـــالى لتهنئته وجدوا أن أساس البناء الجديد كانت قد حفرت . وبنى سورا خارجياً من من اللبن على شكل مربع طول كل ضلع من أضلاعه ١٢٠٠ ياردة وكانت مساحة الأرض التى حددها هذا المربع ٣٤٠ فداناً منها نحو ٧٠ فداناً بنى عليهـا جوهر القصر الكبير وخمسة وثلاثين فداناً للبستان الكافورى ومثلها للميادين والباقى قدره مائتان فدان هو الذى وزع على الفرق العسكرية فى نحو عشرين خطة بجانبى قصبة القاهرة [٣] ، ونظراً لأن جوهر كان قد أسرع فى حفر أساس القصر بالليل

---

(١) مذكر بعض المراجع هذا التاريخ ١١ شعبان عام ٣٥٨ هـ (أول يوليو ٩٦٩) .

(٢) ردم هذا الخليج فى أواخر القرن التاسع عشر ، ويسمى الشارع الآن شارع الخليج المصرى .

(٣) الخطط التوفيقية لعلى باشا مبارك جـ ٢ ص ٨١ .

فحدثت فيه انحناءات غير معتدلة فلما شاهدها فى الصباح لم يعجبه ، لكنه قال : « قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة » وتركه على حاله . وفى اليوم الذى خط جوهر القاهرة أخذت كل قبيلة من القبائل الشيعية التى تالف منها جيشه خطته فاتخذت زويلة الخطة المعروفة إلى اليوم ، واختطت جماعة من برقة الحارة البرقية واختطت الروم حارتين البرانية والجوانية بقرب باب النصر[1] وكان غرض جوهر من إنشاء القاهرة أن تكون معقلا حصينا لرد القرامطة عن مدينة مصر الفسطاط ليقاتلهم من دونها فأدار السور اللبن على معسكرات قواته وأنشأ من داخل السور جامعا وقصراً واحتفر خندقا من الجهة الشمالية ليمنع اقتحام جيش القرامطة إلى القاهرة ومصر من ورائها[2] أما القصر الذى بناه جوهر فقد أوضح ابن دقماق الغرض الذى رما إليه جوهر ،فقال أنه بناه لمولاه حتى يكون هو وأعوانه وجيوشه بمعزل عن عامة الشعب . ويمكن تتبع حدود سور القاهرة المعزية فى أكثر أجزائه بفضل المعلومات التى أمدنا بها المقريزى ما عدا ذلك الجزء الواقع بين باب النصر وباب البرقية فليس لدينا أية بيانات عنه . وقد كانت القاهرة تحد من الشمال بموقع باب النصر والخلاء الممتد أمامه . ومن الجنوب بموقع باب زويلة القريب من موقعه الحالى المواجه للفسطاط ومن الجهة الشرقية بموقع باب البرقية والباب المحروق المواجهين للمقطم ، ومن الجهة الغربية بموقع باب سعادة المطل أو المحاذى لخليج أمير المؤمنين بعيدا عنه بنحو ٣٠ مترا .

وقيل أنه لما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام حوله السور ، سمى المدينة فى أول الأمر المنصورية تيمنا باسم مدينة المنصورية التى أنشأها خارج القيروان المنصور

---

(١) الخطط المقريزية طبعة النيل جـ ٢ . ص ١٧٩

(٢) الخطط المقريزية طبعة النيل جـ ٢ . ص ١٧٩

بالله والد المعز واستمر هذا الاسم حتى قدم المعز إلى مصر فأطلق عليها القاهرة[1] وذلك بعد مرور أربع سنوات على تأسيسها[2] . ومن الواضح كما أشارت «رايتماير» أننا يمكننا أن نجزم بأن القائد جوهر كانت لديه تعليمات من الخليفة بأن ينشيء المنصورية مدينة تكون للفسطاط بمثابة المنصورية للقيروان أو بمثابة فرساى لباريس أو وندسور للندن .

ويلاحظ بهذه المناسبة ما ذكره البكرى من أن بابين من أبواب المنصورية كان يطلق على أحدهما باب زويلة والثانى باب الفتوح وقد أطلق هذان الأسمان على بابين من أبواب سور مدينة القاهرة المصرية .

وفى يوم الثلاثاء السادس من شهر رمضان سنة ٣٦٢ هـ (١٠ يونيو ٩٧٣م) لما وصل المعز إلى القاهرة على رأس أفراد أسرته تجاهل الفسطاط فلم يشقها وكانت قد زينت ابتهاجا لمقدمه ثم قصد القصر الكبير وأمر ببناء مقبرة لدفن أجداده الذين استحضر جثثهم معه فى توابيت . وفى آخر شهر رمضان أقام الصلاة بنفسه بالأزهر وخطب خطبة العيد . وكانت الصلاة قد أقيمت

---

(١) كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار بلاط الخلفاء للمقريزى ـ بيت المقدس ـ ١٩٠٨ .

(٢) قيل فى سبب تسميتها أن القائد جوهر لما أراد بناء القاهرة أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد خارج مصر ليقيم فيها الجند وأمرهم لاختيار طالع سعيد لوضع الاساس وطالع لحفر السور وجعلوا بدائر السور قوائم إخشب بين كل قائمتين حبل فيها اجراس وقالوا للعمال إذا تحركت الاجراس فارموا بأيديكم من الطين والحجاره فوقفوا ينتظرون الوقت الصالح لذلك فاتفق أن غرابا وقع على حبل من الحبال التى فيها الاجراس فتحركت كلها فظن العمال أن المنجمين قد حركوها فالقوا ما بديايهم من الطين والحجارة وبنوا فصاح المنجمون « القاهرة فى الطالع » فمضى ذلك وفاتهم ما قصدوه وقيل أن المريخ كان فى الطالع عند ابتداء وضع الاساس وهو قاهر الفلك فسموها القاهرة ـ الخطط المقريزية ج ٢ ص ٢٠٤ .

لأول مرة بالجامع الأزهر فى يوم الجمعة لست خلون فى رمضان سنة ٣٦١ هـ (٢١ يونيو ٩٧٢)[١] .

فكأن القاهرة المدينة المسورة لم يقصد جوهر من إنشائها فى بادىء الأمر أن تكون قاعدة أو دار خلافة أو منزل ملك بل وضعها لتكون سكنا للخليفة وحرمه وجنده وخواصه ومعقل قتال يتحصن به ويلتجىء إليه[٢] . فنشأت القاهرة مدينة خاصة للدولة الفاطمية الناشئة واستمرت حينا بعد قيامها مدينة خليفية عسكرية تشتمل على قصور الخلفاء ومساكن الأمراء ودواوين الحكومة وخزائن المال والسلاح ، ثم أصبحت بعد إنشائها بأربعة أعوام عاصمة الخلافة الفاطمية لما انتقل المعز وأسرته من المغرب ونزلوا فى القصر الشرقى الكبير واتخذ الخليفة مصر موطنا له . وكان ذلك فى يوم الثلاثاء ٦ رمضان ٣٦٢ هـ (١٠ يونيو ٩٧٣)[٣] .

---

(١) ذكر المقريزى فى الخطط (بولاق جـ ٢ ص ٢٧٣) أن ذلك كان من يوم الجمعة لسبع خلون من رمضان وهو خطأ لأن يوم ٧ يوافق يوم السبت — كما جاء فى التوفيقات الالهامية. وقد عنى المؤرخون بذكر أول صلاة جمعة تقام فى أية مدينة اسلاميه منذ عهد الفتوح ، وحدث ذلك فعلا بالجامع الأزهر يوم الجمعه لست خلون من رمضان سنة ٣٦١ هـ الموافق يوم ٢١ يونيو ٩٧٢ .

(٢) الخطط المقريزية ، طبعه النيل — جـ ٢ — ص ١٨٤

(٣) أن تصميم القاهره الأصلى يوضح تأثر القائد جوهر والمعز بما راياه فى أفريقيا — الشماليه من التخطيط الرومانى فإنه يمكن التشبيه بين مدينة تمجد الرومانية ومدينة القاهرة من حيث وجود شارعين أساسيين للكارد وماكسيموس والديكومانوس ماكسيموس اللذان يقسمان المدينة أحدهما من الشمال إلى الجنوب منتهيا إلى طرق المواصلات للوجهين القبلى والبحرى مارا بالميادين الوسطى التى بها قصر الحاكم وخدمه وجنده وحدائقه بدلا من المعبد والبسيوم والاوديون الرومانى . وأما الطريق الثانية فيقسم المدينة من الشرق إلى الغرب أى من باب الوزير وكان ذلك الطريق ينتهى إلى الجامع الأزهر . وليست القاهرة بالمدينة الوحيدة ذات الأسوار العتيده المتعدده بل يمكن القول بأن مدينة باريس وعمرها عشرون قرنا قد اعيد تشييد حصونها ست مرات متوالية إلى أن تخلصت نهائيا منها .

ولم يكن لقاطنى مصر أن يدخلوا « القاهرة » إلا بإذن يسمح لصاحبه بدخول إحدى بوابات القاهرة وكان مفوضو الدول الأجنبية الذين يحضرون الحفلات الرسمية يترجلون عن جيادهم ويستقدمون إلى القصر بين صفين من الجنود على الطريقة البيزنطية — وكانت أسوار القاهرة العالية وأبوابها المحروسة تحجب الخليفة عن أنظار شعبه .

وبعد بضعة أعوام السعت المدينة الناشئة ونمت نموا كبيرا وبدأت القاهرة حياتها فى ظل الخلفاء الفاطميين وتبوأت مكانتها العظيمة برونقها وبهائها ثم اتصلت بمصر الفسطاط وصارتا تؤلفان معا أكبر المدن الإسلامية فى العصور الوسطى .

أسوار القاهرة الفاطمية[1]

كانت المدن فى أغلب أنحاء العالم فى الزمن الماضى تحصن بأسوار تقام حولها لصد هجمات المغيرين عليها . ولهذا فإنه لما أنشأ القائد جوهر مدينة القاهرة حرص على أن يقيم حولها سورا سميكا من اللبن وفتح فيه الأبواب الضخام .

وبعد مضى حوالى القرن من تأسيس القاهرة رأى أمير الجيوش بدر الجمالى وكان يومئذ وزيرا للخليفة المستنصر أبو تميم معد أن الناس بنوا خارج السور بسبب اتساع العمران ، لاسيما فى الجهتين البحرية والقبلية من المدينة فأحاطها بسور وصله بسور جوهر القائد يميناً ويساراً وفتح فيه أبواباً أمام الأبواب القديمة لتكون عوضاً عنها .

---

(١) رجعنا عند كتابة هذا الفصل إلى مذكرات المرحوم المؤرخ محمد بك رمزى

ولما زاد العمران بعد ذلك واتسعت المدينة أخذ صلاح الدين من سنة ٥٦٦ هـ ٩٧٠ م وهو يومئذ وزيراً للخليفة العاضد عبدالله بن يوسف آخر الخلفاء الفاطميين فى بناء سور جديد بالحجر بدلا من أسوار المدينة القديمة التى كانت باللبن على أن يشمل السور الجديد جميع ما زاد على القاهرة فى غربيها إلى النيل (بسبب ماطرحه النهر من الأرض) وفى جنوبها إلى مصر القديمة ، واستبقى أبواب بدر الجمالى لأنها مبنية بالحجر أمتن بناء وأروعه .

السور الأول :

لما تكلم المقريزى فى خططه على سور القاهرة(١) ذكر أن القائد جوهر بدأ من عام ٣٥٩ هـ - ٩٧٠ م ببناء السور الذى أنشأه من اللبن على مناخه الذى نزل فيه هو وجنوده حيث القاهرة الآن ثم أداره على القصر والجامع وأدخل فى دائرة سور القصر بئر العظام وجعل القاهرة حارات للواصلين صحبته وصحبة مولاه للعز ورتب فى القصر جميع مايحتاج إليه الخلفاء .

ومن جهة تعيين موقع السور وحدوده فإنه يستفاد مما ذكره المقريزى عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وبابى زويلة القديمين وباب زويلة الحالى وباب البرقية وعلى جامع الحاكم وحارة بهاء الدين وعلى غير ذلك من المبانى التى حدثت بين هذا السور وسور بدر الجمالى — يستفاد من كل ذلك أن مدينة القاهرة القديمة التى أنشأها جوهر القائد كانت واقعة بين مبانى القاهرة الحالية وكانت محاطة بسور على جهاتها الأربع فى المنطقة التى تحد اليوم من الجهة البحرية بخط يبدأ من رأس حارة الوسايعة من جهتها الشرقية حيث كان يبدأ السور البحرى ثم يسير

---

(١) الخطط المقريزيه جـ ١ ص ٣٧٧

إلى الغرب حتى يتقابل بشارع باب النصر عند نقطة واقعة على بعد عشرين مترا إلى شمال جامع الحاج محمود الحنو المعروف بجامع الشهداء حيث كان يقع فى تلك النقطة باب القدس الذى كان بداخل باب النصر ومن هنـاك يسير السور إلى الغرب حتى يتقابل بشارع المعز لدين الله (شارع باب الفتوح سابقا) على رأس مدخل شارع بين السيارج حيث كان يقع فى تلك النقطة باب القوس الذى كان داخلا فى باب الفتوح ، ثم يمتد السور فى مكان الوجهة البحرية للمبانى الواقعة فى شارع بين السيارج إلى نهايته الغربية عند نقطة تجاه جامع حسن الزركشى ، وكان السور البحرى لمدينة جوهر ينتهى عند تلك النقطة .

كان السور الغربى يبدأ من النقطة المذكورة ثم يسير متجهاً إلى الجنوب إلى أن يصل إلى رأس شارع أمير الجيوش الجوانى حيث يقع باب القوس الذى كان بداخل باب القنطرة ثم يسير السور إلى الجنوب فى مكان الوجهـــة الغربية للمبانى الواقعة بشارع الشعرانى البرانى وشارع بين السورين وشارع بين النهدين إلى باب الخوخة على رأس شارع قبو الزينة (وصوابه قبو الزينبية) ثم يمتد السور بعد ذلك بالوجهة الغربية لمبانى شارع جامع البنات إلى أن يلتقى برأس شارع الاستئناف الحالى حيث كانت خوخة الأمير حسين ثم يسير السور جنوبا إلى حيث مبنى محكمة الاستئناف على بعد ٢٠ متراً خنوبى مدخل الاستئناف وعلى بعد عشرة أمتار فى شمـال البابا الغربى لمحـكمة الاستئناف . وعند تلك النقطة كان يقع باب سعادة وهو آخر السور الغربى لمدينة جوهر .

وكان السور القبلى يبدأ من الـكتف القبـلى لباب سعادة ثم يسير إلى الشرق إلى شارع المنجلة من الجهة القبلية ثم يمتد إلى شـارع المنجدين من الغرب وبين شارع المعز لدين الله (شارع الناخلية سابقا) من الشرق وكان يقـع بابا زويلة القديمان

اللذان أنشأهما جوهر فى السور القبلى تجاه جامع سام بن نوح ومن الجامع المذكور يمتد السور القبلى حتى يصل إلى درب المحروق وإلى هذه النقطة ينتهى السور القبلى .

أما السور الشرقى فكان يمتد إلى الشمال حيث موقع باب البرقية الأول ثم يمتد من تلك النقطة إلى الشمال حتى يتلاقى بالسور البحرى عند النقطة التى يحدها اليوم برج الظفر تقريباً .

هذه هى مواقع السور الذى أنشأه جوهر القائد حول مدينة القاهرة الأصلية ، ولبيس لهذا السور أثر اليوم .

السور الثانى :

لما تكلم المقريزى فى خططه عن أسوار القاهرة فى أيام الدولة الفاطمية ذكر أن السور الثانى بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٨٠هـ — ١٠٨٧ م وزاد فيه من الشمال الزيادة التى بين بابى القوس اللذين أنشأهما جوهر القائد فى سور القاهرة البحرى وبين السور الحالى الذى فيه باب النصر وباب الفتوح الحاليين ثم زاد فيه من الجهة الجنوبية الزيادة التى فيما بين بابى زويلة القديمين اللذين أنشأهما جوهر فى سور القاهرة القبلى وبين السور الذى فيه باب زويلة الحالى وجعل بدر الجمالى الأسوار التى أنشأها من اللبن وأقام الأبواب من حجارة .

ويستفاد مما ذكره المقريزى ، عند الكلام على باب النصر وباب الفتوح وباب زويله وعلى جامع الحاكم وعلى حارة بهاء الدين وعلى السور الثالث الذى أنشأه صلاح الدين يستفاد من كل ذلك أن الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الشمالية من سور جوهر هى التى تحد اليوم من الشمال بالسور الحجرى الموجود الآن الذى

يبدأ من النقطة التى يشغلها اليوم برج الظفر ثم يسير إلى الغرب إلى أن يصل إلى باب النصر ثم إلى باب الفتوح ، وتحد هذه الزيادة من الغرب بسور كان يمتد إلى الجنوب التى يبدأ منها السور الغربى لمدينة جوهر ، وتحد من الجنوب بسور جوهر وتحد من الشرق بسور من اللبن كان يمتد من النقطة التى فى أول الحد الشمالى من الشرق ومنها يسير إلى الجنوب بشكله المتعرج .

أما الزيادة التى برز بها بدر الجمالى فى الجهة الجنوبيــة من سور جوهر ، فتحد اليوم من الشمال بسور جوهر ومن الغرب بسور من اللبن ثم يسير إلى الجنوب حيث كان موقع باب الفرج ثم يسير إلى الجنوب حيث ينتهى السور الغربى لهــذه الزيادة عند موقع باب الخلق وتحد من الجنوب بسور من اللبن يسير إلى الشرق فى مكان الوجهة القبلية للمبانى القائمة بالجهة الشمالية من شارع تحت الربع إلى أن يصــل إلى النقطة حيث يقع باب زويله الحالى، ثم يمتد السور إلى الشرق عند مدخل حارة الروم حيث كان موقع خوخه أيدغمش ثم يسير من هذه النقطة إلى جهة الشرق فى مكان الوجهة القبلية للمبانى الواقعة بجزء من شارع الدرب الاحمر الواقعة فى حارة سعد الله ومنها تمتد إلى حيث ينتهي الحد القبلى عنــد البرج الذى يتبعه القارىء على السور المبين على خريطة القاهرة الحالية وتحد من الشرق بسور القاهرة الحالى .

أنشأ بدر ا· الى أســواره باللبن ماعدا الجزء الواقع بين بابى الفتوح والنصر فهو بالحجر إلى اليوم . وكذلك الأجزاء الواقعة على جانبي البابين المذكورين وعلى جانبي باب زويلة فهى بالحجر على مسافة ١٢٠ مترا تقريبا من كل جانب وقد زال أثر الأسوار التى أنشأها بدر الجمالى باللبن وأقام صلاح الدين فى مكانها بعض أجزاء منها أجزاء أخرى بالحجر فى ســوره الثالث الذى سيأتى ذكره فى قاهرة صلاح الدين .

أبواب القاهرة

كان القاهرة ثمانية أبواب ، لكل جنب من أجنابها الأربعة بابان . ففى الجنوب باب زويلة وكان بابين فى الأصل بنتهما قبيلة زويلة من قبائل البربر وكانا عند مسجد أبى البناء وعند الحجارين[1] .

باب الفرج : يمكن تحقيق موقع هذا الباب بالضبط بأنك إذا سرت فى حارة الجداوى من ناحية السكرية تقابل على يسارك جامع المؤيد فحمام المؤيد فإنشاء صغير به ضريح لمن يدعى « سيد فرج » وهو ليس سوى باب الفرج ،وفى الجهة البحرية التى يسلك منها إلى عين شمس .

باب النصر : موضعه الأول بالرحبة التى أمام جامع الحاكم قرب المكان الذى يشغله الباب الحالى . وقد ذكر المقريزى أنه رآى جزءا من جانبه المواجه للركن الغربى للمدرسة القاصدية حيث كانت هناك الرحبة المذكورة تفصل هذه المدرسة عند البابين لجامع الحاكم .

باب الفتوح : ذكر المقريزى أنه كان لا يزال يوجد فى عصره من باب الفتوح الأول أجزاء من عقده وعضادته اليسرى وبعض أسطر من الكتابة

---

(١) مسجد ابن البناء هو الذى يعرف اليوم باسم زاوية العقادين بجوار سبيل العقادين بشارع المناخليه وتسميها العامة زاويه سام بن نوح وقد بني المسجد المذكور الحاكم بأمر الله وما ابن البناء سنة ٥٩٨ هـ وقد ازيل بابا زويله الاصليان وبنى أمير الجيوش بدر الجمالى بدلهما باب زويله الكبير القائم الى اليوم . وتسميه العامة بوابة المتولى حيث كان يجلس فى مدخله متولى حسبه القاهره ـ تعليق محمد بك رمزى : النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٣٧ .

(٢) محمود أحمد : مجلة الهندسه ـ ١٩٣٤ ص ٣٣٢

الكوفية . وكانت هذه الأجزاء على رأس حارة بهاء الدين من قبليها دون جدار الجامع الحاكمى(١) .

وكان فى الجهة الشرقية من القاهرة وهى الجهة التى يسلك منها إلى الجبل بابان هما:

باب القراطين (المحروق) : يمكن تعيين موقع هذا الباب تعيينا أقرب إلى الضبط نظراً لأن موقع الباب الذى حل محله لا يزال معروفا باسم الباب لمحروق(٢) ويرى الأستاذ كريسويل أن موقع باب القراطين الأول كان على مسافة خمسين ذراعاً من الباب المحروق الحالى(٣) .

وباب البرقية : ليس من السهل تحديد موقع باب البرقية لأن الفصل الذى بحث فيه المقريزى أبواب القاهرة وقف عند باب البرقية ، ومن المحتمل جداً أن موقعه كان شمالى الباب المحروق وبالقرب من الجامع الأزهر وقد نسب إلى جنود برقة ثم عرف بعد بباب الغريب .

أما الجهة الغربية من القاهرة وهى المطلة على الخليج الكبير فقد كان فيها باب سعادة : أول أبواب السور الغربى من الجنوب . وقد عرف باسم سعاد بن حيان غلام للمعز لدين الله وأحد قواده . لأنه لما قدم من بلاد المغرب بعد بناء القاهرة

---

(١) الخطط المقريزية : ج ص ٢١٠ و ٢١١ — طبعة النيل

(٢) أطلق على الباب المحروق هذا الاسم بسبب مافعله ٧٠٠ مملوك هربوا من القاهره عند ما علموا بقتل الفارس الامير اقطاى فى ٢١ شعبان ٦٥٢ هـ ففى أثناء الليل تركوا منازلهم وتقدموا نحو هذا الباب فوجدوه مغلقا كما كانت العادة فى ذلك العصر إذا كانت تغلق أبواب مدينة القاهره فى الليل فاوقدوا النار فى الباب حتى سقط من ذلك الحريق وخرجوا منه ومن ذلك الوقت عرف هذا الباب بالباب المحروق المقريزى — طبعة النيل ج ٢ ص ٢١٣ .

(٣) K.A.C. Creswell: The Foundation of Cairo, P. 272

نزل بالجيزة وخرج جوهر إلى لقائه وعاد معه إلى القاهرة ودخلها من هـذا الباب، فعرف به وقيل له باب سعادة ويحدد موقع هـذا الباب بالضبط بالطرف الجنوبي للجانب الغربي من سور القاهرة وبالقرب من الركن الشمالي الشرقي لمحكمة الاستئناف .

باب القنطرة أو الجسر : عرف بذلك الإسم لأن جوهر بنى هناك قنطرة فوق الخليج الذى بظاهر القاهرة ليسير عليها إلى المقس عند مسير القرامطة إلى مصر (٣٦٠ هـ) وكان موضعه على مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى تجاه مدرسة باب الشعرية[1] . وقد سمى العامة باب القنطرة خطأ باسم باب الشعرية فى حين أن ذلك الباب كان قائماً غربى الخليج بميدان العدوى بين شارعي العدوى وسوق الجراية وكانت قنطرة أخرى عند ذلك الباب ذكرها المقريزى باسم قنطرة باب الشعرية وتعرف فى أيامنا باسم الخروبى والعدوى والخروبى مدفونان فى مسجد بجوار موقع الباب المذكور .

الجامع الأزهر

بعد عام من فتح الفاطميين مصر كان جوهر قد أتم إنشاء القاهرة ، فكان أول أعماله بناء الجامع الأزهر . وقد أكد المقريزى أن القائد جوهر بدأ عمارته فى يوم السبت لست بقين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ هو لما أتم تشييده بعد عامين فتح للصلاة فى شهر رمضان سنة ٣٦١ هـ (يونية ٩٧٢م)[2] ويعد الأزهر أول عمل فنى معمارى بناه الفاطميون فى مصر لا يزال قائماً اليوم .

---

(١) تعليق محمد رمزى بك بالنجوم الزاهرة جـ ٤ ص ٣٩

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان جـ ١ ص ١٤٩ ، صبح الأعشى للقلقشندى جـ ٣ ص ٣٦٤ ، حسن المحاضرة للسيوطى ، مطبعة الموسوعات جـ ٢ ص ١٠٤ .

بنى الجامع الأزهر فى شرق المدينة على مقربة من القصر الكبير الذى كان موجوداً حينذاك بين حى الديلم وحى الترك . وكتب جوهر بدائرة القبة فى الرواق الأعلى نقشا تاريخه عام ٣٦٠ هـ تجد نصه فى الخطط المقريزية وقد اندثر هذا النقش .

ويعد التخطيط الأصلى الذى أنشىء هذا الجامع عليه من الأمور الصعبة التى لا يمكن الإهتداء إليها . فقد زاد كثير من الخلفاء الفاطميين فى بنائه وأعيد تجديد أجزاء كثيرة منه فى خلال القرون الماضية كما أضيفت إليه زيادات عدة ويحتوى الجامع على بقية ضئيلة من الأفاريز المشتملة على كتابات كوفية التى تعد من مميزات العمارة الفاطمية فإن جل أجزاءه الحالية من عصر متأخر إذ أضاف المستنصر والحافظ فى بنيان الجامع بعض أجزائه . ثم قطع عنه الأيوبيون كثيراً مما أوقفه عليه الحاكم ومنع صلاح الدين الخطبة عنه . وكان قايتباى أكثر الناس رعاية للجامع فى القرن التاسع . وإنشاء الفاطميين لهذا المسجد لايفسر الإسم الذى أطلق عليه ، فقد قيل أن الأزهر إشارة إلى الزهراء وهو لقب السيدة فاطمة التى سمت باسمها مقصورة فى المسجد وقال بعضهم أن هذه التسمية نسبة إلى القصور الزاهرة التى بنيت حين أنشئت القاهرة ، وقال آخرون إنما سمى كذلك تفاؤلا بما سيكون له من الشأن والمكانة بازدهار العلوم فيه . وكان الخليفة العزيز الفاطمى أول من حول الأزهر من مسجد تقام فيه الشعائر الدينية إلى جامعة الشيعة تدرس فيها العلوم ويروج فيها المذهب الفاطمى كما كان أول من أجرى الأرزاق على طلاب العلم فيه ممن وفدوا من جميع نواحى العالم الإسلامى .

---

(١) نص هذا النقش : مما أمر ببنائه عبدالله ووليه أبو تميم معد ، والامام المعز لدين الله ، أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أبائه وأبنائه الأكرمين ، على يد عبده جوهر الكاتب الصقلى فى سنة ٣٦٠ هـ (٩٧١ م)

ننتقل الآن إلى ذكر أهم الأحياء التى اشتملت عليها القاهرة المعزية :

سبق القول أنه فى اليوم الذى خط فيه جوهر المدينة الجديدة أخذت كل قبيلة من القبائل التى تألف منها الجيش الفاطمى خطه عرفت باسمها وقد كان أهم تلك الخطط أو الحارات ما يأتى :

١ ـــ حارة الروم : كانت حارتين : وهى التى لم تزل معروفة إلى اليوم بنفس الإسم بقسم الدرب الأحمر وحارة الرومالجوانية بقرب باب النصر علىيسارالداخل إلى القاهرة . وقد نسبت إلى الأشراف الجوانيين .

٢ ـــ حارة برجوان : منسوبة إلى برجوان أحد خدمة القصر فىأيام العزيزبالله نزار العبيدى . وصارفى أيام الحاكم بأمرالله مديرمملكته حتى قتله فىأحدقصوره .

٣ ـــ حارة زويلة : منسوبة إلى زويلة أحدى قبائل البربر التىوفدت على مصر صحبة القائد جوهر وكانت خطة كبيرة .

٤ ـــ حارة الجودرية : وهى طائفة منسوبة إلى جودر خادم عبيد الله المهــدى أبو الخلفاء الفاطميين . وقد سكنها اليهود بعدهم إلى أن بلغ الحاكم أنهم يهزأون بالمسلمين فسد عليهم أبوابها وحرقهم ليلا .

٥ ـــ حارة الأمراء : بالقرب من باب الزهومة[1] وقد عرفت فيما بعد باسم درب شمس الدولة توران شاه بن أيوب شقيق السلطان صلاح الدين ، وكانت بهادار الوزير عباس

---

(١) باب الزهومة أحد الأبواب الغربية للقصر الكبير وموقعه اليوم الدكاكين الواقعة فى أول شارع خان الخليلى على يسار داخله من جهه شارع القمصانجيه من شارع بين القصرين ـ تعليق محمد رمزى ـ النجوم الزاهرة جـ٤ ،ص ٣٦ .

٦ — حارة الديلم : منسوبة إلى الديلم الذين أتوا برفقة « فتكين » غلام المعز ابن بويه الديلمي الذى تغلب على الشام فى عهد المعز وقاتل جوهر واستنصر بالقرامطة لكنه وقع فى أسر العزيز بالله فى مدينة الرملة وساقه إلى القاهرة فعامله بالحسنى وأنزله مع أصحابه بهذه الخطهوكانت بها دار الصالح طلائع بن رزيك .

٧ — حارة الباطنية وتعرف بقوم أتوا مع المعز ولما قسم العطاء بين الناس لم يعطهم شيئاً فقالوا « رحنا نحن فى الباطل » فسمو الباطلية[1] .

٨ — حارة الكافورى : كانت بستانا للأستاذ الملك كافورا لأخشيدى ثم صار من بعده للخلفاء المصريين .

٩ — حارة قائد القواد : (درب ملوخية) سكنه فى بادىء الأمر حسين بن جوهر القائد الملقب بقائد القواد ثم نسبت هذة الحارة إلى ملوخية أحد فراشىالقصر ويعرف هذا الدرب اليوم باسم حارة درب الشوك .

١٠ — حارةالعطوف منسوبة إلىالخادم عطوف أحد خدمالقصر الفاطمى وتدل على موقعها المنطقة التى يتوسطها اليوم حارة العطوف بالقرب من باب النصر .

١١ — الوزيرية : منسوبة إلى الوزير يعقوب بن كلس وكانت حارة كبيرة .

١٢ — حارة المحمودية : أوالمسامدة منسوبة إلى الطائفة المعروفة بالمحمودية التى قدمت أيام العزيز بالله الفاطمى إلى مصر .

وعلى مر الأيام زاد عددهذهالخطط وتطورت كثيراًفى أيام الأيوبيين والمماليك مما لا يتسع هذا البحث لشرحه ووصفه مفصلا[2] .

---

(١) يدل على موقعها اليوم شارع وحارة الباطنيه فى الجنوب الشرقى لجامع الأزهر .

(٢) تبحث المراجع المفصله — كالمقريزى وعلى باشا مبارك ورافيس .

القصور الفاطمية

وصف المقريزى قصور الفواطم فيما لا يقل عن مائتى صفحة . وقد حفر جوهر أساس القصر الكبير فى ١٧ شعبان ٣٥٨ هـ (٦ يوليو ٩٦٩) واستمر العمل فى أقسامه المتعددة عدة سنين . واشتمل هذا القصر فى داخله على عدة مناظر وقاعات وقصور صغيرة أهمها بهو الذهب والاقبال والظفر والشجرة وقصر الشوك والزرد والنسيم والبحر والحريم .

ولما آلت الخلافة إلى العزيز أضاف إلى القصر قاعة الذهب والديوان الكبير وكانت للقصر الكبير وحده تسعة أبواب أهمها وأجلها باب الذهب ثم باب البحر وباب الزمر وباب السعيد وباب قصر الشوك وباب الديلم وباب تربة الزعفران ثم باب الزهومة.

وكان باب الذهب تدخل منه القوات العسكرية وجميع أهل الدولة فى يومى الإثنين والخميس لقاعة الذهب . وكان هناك أمام القصر ميدان فسيح تعرض فيه الجنود فى يومى العيدين .

أما القصر الصغير فقد أمر ببنائه العزيز بالله عام ٤٥٠ هـ/١٠٥٨ وقد قال المسبحى عنه « لم يبن مثله فى شرق ولا فى غرب » وكانت له عدة بوابات أهمها باب السباط وباب التبانين وباب الزمرد ، وكان يتصل بالقصر الكبير بواسطة نفق تحت الأرض وكان ينزل منه الخليفة ممتطياً ظهر بغلته تحيط به فتيات القصر.

ولم يتم بناء القصر الصغير إلا فى عام ٤٥٧ هـ / ١٠٦٥ م فى خلافة المنتصر وقد شغل موقعه فيما بعد المارستان الكبير المنصورى إلى جوار حارة برجوان .

وشيد الفاطميون دوراً كثيرة ومناظر جميلة منها دار الضيافة، ودار الوزارة الكبرى ودار الغرب ودار الذهب . وقد بنى دار الوزارة (الدار الأفضلية) أمير

الجيوش الأفضل بن بدر الجمالى ثم سكنها أرباب السيوف أمراء الجيوش المصرية بالتوالى إلى أن تولى الأيوبيون الحكم فى مصر فسكنها السلطان الملك الصالح وولده دار الحكمة .

وفى أيام الحاكم بأمر الله شيدت دار العلم (دار الحكمة) بجوار القصر الغربى ، وقد افتتحت فى اليوم العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ ، وأستمرت تؤدى رسالتها حتى أبطلها الأفضل ابن القائد بدر الجمالى، وربما يكون أحسن وصف لقصور القاهرة المعزية ما جاء فى تلك الوثيقة التى تثبت عظمة العصر الفاطمى وأبهته حين زار الخليفة رسولا الملك عمورى (أماريك) سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧م ليعقدا معه باسم سيدها تحالفاً قوامه أن يدفع الخليفة للصليبيين مائتى ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة نظير دفاعهم عن مصر وصدهم الأعداء عنها .

وقد وصف غليوم رئيس أساقفة صور مؤرخ الحرب الصليبية زيارة الرسولين الصليبيين وعبر عن حماسهما واعجابهما بعظمة ما رأوه وروعته، وقد نقل جستاف شلمبرجيه إلى الفرنسية بعض ما كتبه غليوم فى هذا الصدد ، كما لخص لين بول بعضه فى كتابه عن تاريخ مصر وكتابه عن صلاح الدين (٢)

« سار السفراء الفرنج يقودهم الوزير شاور بنفسه إلى قصر له رونق وبهجة عظيمان وفيه زخارف أنيقة نضرة ، وكان هؤلاء المبعوثون متأثرين بما حولهم جد التأثير دون أن يتطرق إلى نفوسهم أى خوف أو رهبة ، ووجدوا فى القصر حراساً عديدين وسار الحراس فى طليعة الموكب وسيوفهم مسلولة . وقادوا الفرنج فى ممرات

(١) الخطط المقريزية نقلا عن ابن عبد الظاهر ج ٢ ص ٣٠١ ، ٣٠٢ - طبعة النيل
(٢) كنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن ص ٧١ - ٧٥

طويلة وضيقة وأقبية حالكة الظلمة لا يستطيع الإنسان أن يتبين فيها شيئاً . وربما كان المقصود بذلك بث الرهبة إلى قلوبهم وزيادة التأثير فيهم . فلما خرجوا إلى النور اعترضتهم أبواب كثيرة متعاقبة . كان يسهر على كل منها عدد من الحراس المسلحين الذين كانوا ينهضون عند اقتراب شاور ويحيونه باحترام . ثم وصل الموكب إلى فناء مكشوف تحيط به أروقة ذات أعمدة ، وأرضيته مرصوفة بأنواع من الرخام متعددة الألوان . وفيها تذهيب خارق العادة بنضارته وبهائه ، كما كانت ألواح السقف تزينها الزخارف الذهبية الجميلة .

كان كل ذلك موقفاً رائعاً وبهياً رائقاً بحيث لا يملك أشغل الناس بالا وأكثرهم هما إلى أن يقف للاعجاب به ، وكان فى وسط الفناء نافورة يجرى الماء الصافى منها فى أنانيب من الذهب والفضة إلى أحواض وقنوات مرصوفة بالرخام ، وكانت ترفرف فى الفناء أنواع لا حد لها من الطيور الجميلة ذات الألوان المفرطة فى الندرة مجلوبة من شتى أنحاء الشرق . ولم يكن أحد يرى هذه الطيور دون أن تصيبه الحيرة والدهشة اعجاباً بها ، ودون أن يقول أن الطبيعة كانت تموج وتلعب حين كونت هذه المخلوقات ومن هذه الطيور ما كان يلزم النافورة ، ومنها ما كان يظل بعيداً عنها — كل بحسب طبيعته ، وكان لكل منها من الغذاء ما يوافقه .

وهنا أستأذن الحراس الذين كانوا يسيرون فى معية الفرسان الفرنج حتى ذلك الوقت فى الرجوع وحل محلهم بعض العظماء من الأمراء المقربين إلى الخليفة نفسه .

وسار هؤلاء الأمراء بالسفيرين الفرنجيين فى أفنية أشد جمالا وإبداعا ثم إلى حديقة لطيفة غناء لم تكن الحديقة الأولى شيئاً بجانبها ، ورأوا فى هذه الحديقة

أنواعـا من الحيوانات ذوات الأربع غريبـة بحيث يتهم المرء بالـكذب إذا وصـفها وتحدث عنها ـ وبحيث لا يستطيع أى مصـور أن يتخيل أو أن يحلم بمثـل هذه الكائنات العجيبة ، فإن الغرب لم ير قط مثل هذه الحيوانات ولم يكن يعرفها إلا بما كان يسمع من الأقوال .

وبعد أن عبروا أبواباً عديدة أخرى ـ وساروا فى تعاريج كثيرة كانوا يرون فيها أشياء جديدة تزيدهم دهشة وإعجابا . وصل الفرنج إلى القصـر الـكبير حيث يقطن الخليفة . وفاق هذا القصر كل ماشاهدوه قبل ذلك . وكانت أفنيتـه تفيض بالمحاربين المسلمين متقلدين أسلحتهم ، وعليهم الزرد والدروع تلمع بالذهب والفضة وعليهم سيماء الافتخار بما كانوا يحرسون من الكنوز.

وأدخل المبعوثون فى قاعةواسعة تقسمها ستارة كبيرة من خيوط الذهب والحرير المختلف الألوان . وعليها رسوم الحيوان والطيور وبعض صـور آدمية ، وكانت تلمع بما عليها من الياقوت والزمرد والأحجار النفيسة . ولم يكن فى هذه القـاعة أحد ، لـكن شاور خر را كعا فور دخوله ونهض واقفا ثم قبل الأرض ثانيا وخلع السيف الذى كان يلمع فى عنقه ثم خر ساجداً مرة ثالثة فىذلةوخشوع كأنهيسجدلله وارتفعت الحبال فجأة وانـكشفت الستارة الحريرية الذهبيةبسرعة البرق كأنها ملاءة خفيفة وظهر الخليفة الطفل (السلطان العاضـد) لأعين الفرنج للمبعوثين ، وكان على وجه هذا الأمير نقاب يخفيه تماما وهو جالس على عرش من الذهبمرصع بالجواهر والأحجار الثمينـة .

المعز لدين الله وبناء المقس

كان الخلفاء الفاطميين من أعظم الملوك الذين حكموا مصر ، وكان المعز نفسه حاكما قادرا أدار بنفسه البلاد بمقدرة نادرة وكان نزيها عادلا يشرف على القضاء ويقود الجيش الذى اعتمد عليه فى الدفاع عن البلاد — والمعز هو الذى بنى مرفأ جديدا للسفن فى المقس شمال مرفأى الروضة ومصر (بالقرب من موقع ميدان — رمسيس الحالى) ، ولقد ظلت المقس مرفأ القاهرة حتى تحول النيل عن مجراه — وظهرت بولاق . وشاهد الرحالة « ناصر خسرو » عـدة سفن للمعز فى عام ١٠٤٧ م . وكان طول السفينة الواحدة ٢٧٥ قدما وعرضها ١١٠ اقدام .

ومع أن المعز كان حازما محبا للعمل فقد كان ميالا إلى المظاهر الرسمية فكان يذهب فى موكب فخم لحفل قطع الخليج . وكان يغدق فى الانفاق على كسوة الكعبة فى مكة المكرمة . وكان يهتم لكى تكون القاهرة مدينة ذات فخامة وترف وغنى وقد صرفت زوجه مبلغا على مسجدها فى القرافة والذى وضع تصميمه « الحسن ابن عبد العزيز الفارسى » وتولى زخرفته الفنانون الذين جاءوا من البصرة ، وقد شيد على طراز الجامع الأزهر تحيط به الاروقة المزخرفة البديعة . ولم يزل جامع القرافة قائما إلى أن احترق فى السنة التى أحترق فيهـا جامع عمرو بن العاص سنة أربع وستين وخمسمائة عند نزول « اماريك » ملك بيت المقدس القاهرة اثناء حصاره لها .

وكانت الأموال اللازمة لقصر المعز وللثلاثين ألف من اتباعه وما دعت إليه مظاهر الترف تجبى كضرائب أو أقساط تجمع فى دار الامارة القديمة وكانت مجاورة لمسجد ابن طولون . وقد قال بعض المؤرخين أنه فى يوم واحد جمع من مدينة مصر فى أسعد مجدها مبلغا يتفاوت بين ٢٦٠٠٠ جنيه و ٦٢٠٠٠ جنيه وكان التعامل بالعملة الفاطمية وليس بالعملة العباسية .

العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ)

ولما توفى المعز بويع ابنه العزيز بالخلافة وعين يعقوب بن كلس وزيرا له وقد شاطر العزيز أباه صفاته السياسية فلم تضعف من همته مظاهر الترف وشيد أسطولا لمحاربة امبراطور « باسيل » وانتصر القائد « جوهر » فى عدة معارك بالشام وقد عرف عهده فى مصر بالسلم والرخاء . وكان مولعا باقتناء الكتب فجمع منها مكتبة كبيرة خصص لها قاعات فى قصره سماها «خزانة الكتب» وبذل الأموال فى تشجيع كتابة المؤلفات المهمة فى التاريخ والآدب والفقه . وكانت بعض الكتب بخط المؤلفين أنفسهم كالخليل بن أحمد والطبرى[1] .

ومن آثار العزيز جامع الحاكم الذى أمر ببنائه فى شهر رمضان سنة ثمانين وثلثمائة هجرية . وقد اتم جانبا كبيرا منه فى مدة عام وخطب فيه العزيز وصلى الجمعة فى اليوم الرابع من شهر رمضان عام ٣٨١ هـ . ولما تولى العرش ابنه الحاكم أمر وزيره « يعقوب بن كلس » بأن يتم بناء الجامع ويكمل زخرفته ومئذنته . فبدأ عمله فى عام ٣٩٣ هـ وقدر للنفقة عليه أربعين ألف دينار وانتهى منه فى عام ٤٠٣ هـ وعند انجازه علق على سائر أبوابه استارا دبيقية عملت له وعلق فيه أربعة تنانير فضية وكثيرا من القناديل الفضية كذلك ،وفرش أرضه بالسجاد ونصب فيه المنبر .

جامع الحاكم بأمر الله

عرف أولا بجامع الخطبة ثم جامع الحاكم وقيل له الجامع الأنور (كالازهر) ولقد مرت عليه من حوادث الأيام ما لا تقل عن حوادث جامع عمرو . فلما احتل الصليبيون القاهرة فى سنة ١١٦٧ حولوا جانبا منه إلى كنيسة ، وباستيلاء صلاح الدين على مصر أبطل استخدام الأزهر وجعل جامع الحاكم المسجد الرسمى للدولة .

---

(١) الدكتور زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ١٩٣٧ ـ القاهرة

وفى اليوم الثالث عشر من ذى الحجة عام اثنين وسبعمائة زلزلت أرض مصر والقاهرة فأصيب الجامع الحاكى بسقوط عدد كثير من بدناته وخربت أعالى مئذنتيه وتصدعت سقوفه وجدرانه . وفى العام التالى أمر ركن الدين بيبرس الجاشنكير بترميم ما تهدم منه — واعادة ما سقط من البدنات فأعيدت وأقام سقوفه ورممه فعاد جديدا .

ولما كتب المؤرخ المقريزى خططه المشهورة فى ابتداء القرن التاسع الهجرى كان الجامع مخربا وسقفه مهشما وآثار النار والخراب بادية على جدرانه . ومنذ ذلك الحين لم يقف المسجد على قدميه وكانت الفترة السعيدة التى مرت عليه لما أقيمت فى بعض اجزائه دار الآثار العربية خلال القرن التاسع عشر . وكانت لاتزال بعض النقوش والكتابات الكوفية ظاهرة على جدرانه تدل على جمال فنه .

وجامع الحاكم عمل أثرى نادر ، ومئذنتاه جددهما أثر زلزال عام ٧٠٣ هـ بيبرس الجاشنكير . قاعدة مربعة تتحول إلى شكل مثمن الاضلاع ويتطور إلى شكل أسطوانى يخترقها سلم لولبى من الداخل على جوانبه طاقات ذات شرفات يستخدمها المؤذن .

تولى الحاكم بأمر الله (٣٨٦ — ٤١٤ هـ) الخلافة الفاطمية وعمره أحد عشر سنة وكان شخصية متناقضة عجيبة أفاضت كتب التاريخ بذكر الكثير من أحواله وحوادثه . ومما يدهشنا أننا بينما نقرأ عنه كل تلك المتناقضات نراه فى جامعه المعظم يراقب زخرفته ونقوشه ، أو فى دار العلم التى أنشاها بجوار القصر الغربى فى سنة ٣٩٥ هـ — والتى حمل إليها الكتب من خزائن القصور ووقف عليها أماكن ينفق من ريعها ، وكان الغرض من دار الحكمة تشجيع الناس على المطالعة والدرس وكانت ندوة يجتمع فيها علماء الدين والعلم والادب والتاريخ للمناقشة والتبحر فى علوم الدنيا والدين .

ولما مات الحاكم تولى ابنه الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على فاباح ما منعه أبوه الحاكم فشرب الخمر وسمح باحتسائها . وكان ضعيف الرأى منصرفا إلى اللهو وكثرت فى أيامه الفتن العسكرية فلا تخمد فتنه حتى تعقبها أخرى وضاقت أبواب الرزق وعزت الأقوات وتفاقم الأمر من شدة الغلاء فصاح الناس « الجوع يا أمير المؤمنين . لم يصنع بنا هذا أبوك ولا جدك . فالله الله فى أمرنا » .

ولما توفى الظاهر تولى ابنه المنتصر (٤٢٧-٤٨٧ هـ) وكانت سنه عند مبايعته لاتزيد على سبع سنوات . وكانت أحوال البلاد قد هدأت قليلا كما شهد الرحالة الفارسى ناصر خسرو عند زيارته لمصر بين عامى (١٠٤٧ - ١٠٤٩ م) فقد قال أن الصيارفة وتجار الجواهر تركوا حوانيتهم دون أن يغلقوا أبوابها فى أوجه اللصوص وكان عدد الحوانيت فى القاهرة أكثر من عشرين الفاً كلها ملك الخليفة يدر الواحد منها عليه نحو عشرة دنانير شهريا . وكان يمتلك أيضاً عشرين ألف منزل يتألف الواحد منها من ست طبقات وكان إيجار الواحد منها سبعون جنيها فى السنة . وكانت تلك المنازل مشيدة بالحجر ويفصل كل منزل عن الآخر حديقة غناء . ولم يكن للقاهرة أسوارها فقد هدم السور القديم الأول وتهدمت أجزاؤه ولم يكن قد ابتدىء فى بناء السور الثانى (شيد بعد ذلك بأربعين سنة) وكانت تلك البيوت الشاهقة التى وصفها الرحالةمشيدة على نسق الاستحكامات . وكل قصر منها يشبهقلعة مصغرة . وكانت المسافة بين القاهرة ومصرتقدر بميل واحد ،تناثرت فيها البساتين ومناظر الضواحى وتغمرها مياه النيل فى أثناء الفيضان .

وفى أثناء إقامة « ناصر خسرو » اشتد الجفاء بين الأحزاب السياسية ولكن الوزير القادر اليازورى استطاع كبح جماحها مدة تسع سنوات وجاهد للقضاء على المجاعة التى نشبت أظفارها بخزنه كيات من الغلال بمخازن يوسف بالقرب من مصر القديمة .

ولقد أبدل الخليفة أربعين وزيرا من وزارئه فى مدة تسع سنوات فضاعت هيبة الحكومة عند الشعب وكان الحكام الحقيقيون لهـا هم الجند الترك الذين اتفقوا مع البربر وطردوا الجنود السود من القـاهرة . وثبت هؤلاء أقدامهم فى بعض نواحى الوجه القبلى فأزعجوا سكانها وحاول البربر أيضاً الاستيلاء على الدلتا فأفسدوا مسالك الرى ليفتكوا بالفلاحين حينما انفرد الترك بالعاصمة فأتلفوا قصور الخليفة الغناء ونهبوا مجموعاتها الثمينة من المجوهرات النفيسة مقابل متأخرات رواتبهم وبعد ما انتهوا من نهب القصر دخلوا مدافن أجداد الخليفة وأخرجوا منها كل ماوجدوه فيها من التحف ثم عمدوا إلى خزانة الكتب فأخرجوا منهـا آلافا من الكتب فى جملتها ٢٤٠٠ مصحفاً . وقيـل أن عدد مؤلفاتها كان مائة ألف وأخذ النـاس مغلفاتها لإصلاح نعالهم ولإيقاد نيرانهم . وما لم يحرقوه منها سفت عليه الرياح فصار تلالا عرفت بتلال الكتب .

وتصادف أن قصر النيل فى فيضانه مدة خمس سنوات فهدد البلاد بالمجاعة وامتد الجوع إلى سنة ٤٦٤ هـ . وكان أشده سنة ٤٦٢ هـ . ثم توالت القـلاقل التى اقتضت الإسراف فى الحبوب المخزونة وندرت الحنطة وبلغ ثمن الأردب الواحد مائة دينار والقط ثلاثة دنانير والكلب خمسة دنانير (إذا وجد) ورافق هذا الغلاء وباء مكث سبع سنين ، فلم يبق من يزرع . وأخيراً لمـا لم يجد الناس حيوانا يقتلونه ليأكلوه اختطفوا بعضهم بعضاً وباع القصابون لحم الإنسان ، ثم جاء الطاعون فكان يحصد أسرة بعد أسرة . وكان كثير من أعيان البلاد يحاولون أن يرتزقوا من الخدمة فى الحمامات العامة واضطر الخليفة فى نهاية الأمر بعد أن تخلى عنه رجاله وحاشيته حتى زوجه وبناته وقد هجرته إلى بغـداد إلى أن اضطرته الظروف أن يعيش على رغيفين تصدقت عليه بهما إبنة عالم . غير أن السنوات السبع كانت على وشك الانتهاء . وقد قامت مصر فى أثنائها مالم تره فى أشـد عصورها ظلاما وكان المستنصر قد التجأ

إلى حاكم سورية الأرمنى « بدر الجمالى » فكتب إليه ليجيء على رأس جيشه إلى مصر ليوليه عليها فقبل بدر المجيء إليها وكان عبدا رفعته كفاءته الممتازة إلى المناصب السامية ، فولى إمارة دمشق ثم عكا .

أبواب بدر الجمالى

وصل بدر الجمالى إلى القاهرة فى يوم الأربعاء ٢٩ جمادى الأول سنة ٤٦٧ هـ / ١٠٧٩ وقابل الخليفة . وفى ليلة من الليالى دعا أمراء البلاد إلى وليمة أولمها لهم فى منزله وبيت مع أصحابه أن القوم إذا أمسى عليهم الليل فإنهم لابد يحتاجون إلى الخلاء فمن قام منهم قتل . فلبى الأمراء دعوته وظلوا نهارهم عنده وباتوا مطمئنين وما طلع النهار حتى صارت رءوسهم بين يديه واستولى أصحابه على دور الأمراء فقويت شوكته وعظم أمره وخلع عليه المستنصر والطيلسات وقلد وزارة السيف والقلم وزيد فى ألقابه لقب « أمير الجيوش » كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين ولما أعاد النظام إلى نصابه فى القاهرة اتجه قاصداً أقاليم القطر ليقضى على فتنتها . فأخضع البربر والسودانيين والعرب ، وأعاد الطمانينة إلى قلوب الفلاحين . فازداد الدخل وشعر الأهلون بالرفاهية والرخاء مدة عشرين سنة كاملة . وعادت سطوة الخليفة السياسية والدينية إلى الديار المصرية وعادت مكة إلى مبايعة المستنصر بعد أن قضت خمس سنوات تخطب للخليفة القائم بامر الله العباسى فى بغداد .

تنفست القاهرة الصعداء مدة حكم الوزير بدر الجمالى . فمنذ مضى قرن على بناء الخليفة العزيز القصر الغربى ومنظرة اللؤلؤة لم يضف إلا الشىء القليل على عمارته، وجاء المستنصر ففضل الإقامة فى القصر الذى شيدة بالمطرية حيث أقام جوسقا .

وكان أول ما وجه اليه بدر همته — تحصين القاهرة ضد الغزوات الخارجية

أو فتن الجنود الداخلية . وكان سور القاهرة قد تهدم أمام نمو مساحة المدينة التى ازدادت وزحفت مبانيها خارج أبوابها الشمالية والجنوبية التى بناها القائد جوهر . فهدم بدر هذه الأبواب وبناها من الحجارة (١٠٨٧ ـــ ١٠٩١) وجعل المدينة تضم مساحة أكبر من الأولى . فمثلا أخذ حى الروم فى الجنوب إلى داخل السور وكان فى خارجه ثم أقام السور من اللبن وقد زاده صلاح الدين فيما بعد ـــ وزاد عند باب النصر الرحبة التى تجاه جامع الحاكم إلى باب النصر وتلك الأبواب الثلاثة لم تتغير إلى يومنا هذا ـــ غير أن باب زويلة خفض قليلا من أبراجه لكى يتسع لبناء مئذنتى جامع المؤيد فى أثناء القرن الخامس عشر ـــ الميلادى وتعتبر هذه الأبواب الثلاثة من من أعظم آثار العصر الفاطمى . وقد بناها ثلاثة أخوة وفدوا من أدسا المدينة الأرمنية الأصل التى عرفها بدر فى أثناء فتوحاته ، وقيل أن كل أخ منهم شيد بابا .

وتمتعت مصر أكثر من ستين عاما تحت حكم بدر الجمالى إلى أن توفى فى القاهرة وهو فى الثمانين بعد حكم دام عشرين سنة ، وخلفه الأفضل وكان فاضلا حكيما تدرب على أبيه وقد تمتع بجميع الألقاب والامتيازات التى كانت لأبيه أمير الجيوش وظل فى منصبه حتى أمر بقتله الخليفة الآمر فى عام ١١٢١ وتولى الأمر من بعده أبنه « أبو على » فى عام ١١٣١ . ولما قتل وهو فى طريقه إلى ميدان لعب الكرة خلفه أحد مماليك الأفضل واسمه « يانس » [١] ثم جاء من بعده « بهرام » المسيحى الذى تربع فى كرسى الوزارة حتى عام ١١٣٧ م .

---

(١) ينسب إليه حى (حارة) اليانسية وكانت واقعة خارج باب زويلة وتتصل اليوم بالدرب الأحمر .

الصالح طلائع

قتل الخليفة الآمر فى ذى القعدة (٥٢٤هـ) وهو فى طريقه إلى زيارة معشوقته البدوية فى جزيرة الروضة وكان عمره ٣٥سنة . ومن أعماله التى تذكر له بنائه مسجد الأقمر بين القصرين . وكانت عقوده الداخلية من الأجر اقيمت على أعمـــدة من الرخام وقد نقش على أفريز المسجد بالكوفية اسم الآمر وتاريخ بنائه ٥١٩ هـ .

وفى أيام الخليفة الفائز بنصر الله قدم ابن زريك والى الأشمـونين بمجموعة إلى القاهرة واستولى على الوزارة ولقب بالصالح وقام بأمر الدولة إلى أن مات الفائز فى عام ٥٥٥هـ وأقام الصالح بن زريك فى الخـلافة العاضد لدين الله ، وقـد منحه لقب الملك الصالح . وكان شاعرا مثقفا وكريما سياسيا لازال مسجده قائما أمام باب زويلة . قد مات ضحية نساء القصر اللاتى أوسلن إليه بعض رجالهن فـكمنوا له فى دهاليز القصر وضربوه حتى سقط مغشيا عليه وحمل جريحا . وكان آخر مافاه به ندمه على أنه لم يستخلص بيت المقـدس من أيدى الفرنج ونصيحته لابنه أن يحـــذر « شاور » الحاكم العربى للوجه القبلى . وقد كان الندم والحـذر فى محلهما إذا خلع شاور بن الملك الصالح واسمه محي الدين زريك وكان قد استوزره العاضد واستخلف بعده شاور فى عام ١١١٣م ودخل فى السنة نفسها ملك بيت المقدس البلاد المصرية .

وكان جامع الصالح طلائع أخر أجمـل جامع أنشىء فى عهـد الدولة الفاطمية ووجهته الغربية الفاطمية لانظير لها فى جميـع مساجد القـاهرة من حيث تصميمها ويزيد فى جمالها تلك العقود المملوءة بزخارف على هيئة مروحة. وبالجامع بقايا زخارف جصية ممتلئة بالـكتابات الـكوفية وأخشاب منقوشة تدل على مبلغ ماوصـل اليه فن الزخرفة من الرقى فى ذلك العهد .

ظاهر القاهرة الفاطمية

تكلمنا عن أقسام القاهرة الداخلية ومنشآتها الهامة ، وسنصف ما لحق بها من تطور ونمو حتى نهاية الفواطم. كانت القاهرة الفاطمية من الجهة القبلية (باب زويلة) متصلة بمصر التى امتدت بين الخليج الكبير وجبل المقطم وهذا الامتداد كان قسمين : ما حاذى يمينك إذا خرجت من باب زويلة تريد مصر , وما حاذى شمالك إذا خرجت منه نحو الجبل . أما مواضع الأول فاشتمل على تحت الربع ، والقشاقشين وقنطرة باب الخرق وخط قناطر السباع ويدخل فى ذلك سويقة عصفور وحارة الحزيين وحارة بنى سوسى إلى الشارع وبركة الفيل والهلالية والمحمودية إلى الصليبة ومشهد السيدة نفيسة . وكانت تلك الأماكن تعرف بجنان الزهرى وبستان سيف الاسلام وغير ذلك . وأما ما حاذى شمالك فكان جامع الصالح طلائع والدرب الأحمر إلى القطائع . وكانت فيما بعد الرميلة والميدان تحت القلعة . وأما جهة القاهرة الغربية التى فيها الخليج الكبير فهى من باب القنطرة إلى المقس وما جاور ذلك فانها كانت بساتين فى غربها النيل ، وكان ساحل النيل بالمقس حيث جامع أولاد عنان الآن . فيمر فى المقس إلى المكان الذى يقال له الجراف ومواضع هذه البساتين أصبحت فيما بعد أراضى اللوق والزهرى وغيرها . وكان فيما بين باب سعادة وباب الفرج وبين الخليج فضاء لا بنيان فيه . والناظر تشرف على ما فى غربى الخليج من البساتين التى خلفها النيل . وأما من جهة القاهرة البحرية فكانت قسمين خارج بابى الفتوح والنصر . أما خارج الأول فكانت توجد منظرة من مناظر الخلفاء وأمامها بستانان كبيران ، ومن غربى هذه المنظرة فى جانب الخليج الغربى منظرة أخرى . أما خارج باب النصر فكان فيه مصلى العيد ثم فضاء من المصلى إلى الريدانية .

أما جهة القاهرة الشرقية وهى بين السور والجبل فانه كان فضاء ، ثم أمر الحاكم

بأمر الله أن تلقى أتربة القاهرة من وراء السور ليمنع السيل من دخول القاهرة فصارت منها الأكوام التي عرفت بكيمان البرقية .

ولكي نوضح مراحل نمو القاهرة بإيجاز نذكر مايلي :

١ — توسعت القاهرة في أيام الخليفة الحاكم بأمر الله (حكم بين ٩٩٦ و ١٠٢٠ م) من ناحيتها الشمالية والجنوبية . ففي الشمال خارج باب الفتوح ذكر المقريزي [1] أن الطائفة الحسينية وهي إحدى الطوائف الفاطمية سكنت حارة (خطة) الحسينية وكانت تتألف من عدة حارات يتوسطها اليوم من الجنوب الى الشمال شارع الحسينية وشارع البيومي من باب الفتوح الى ميدان الجيش .

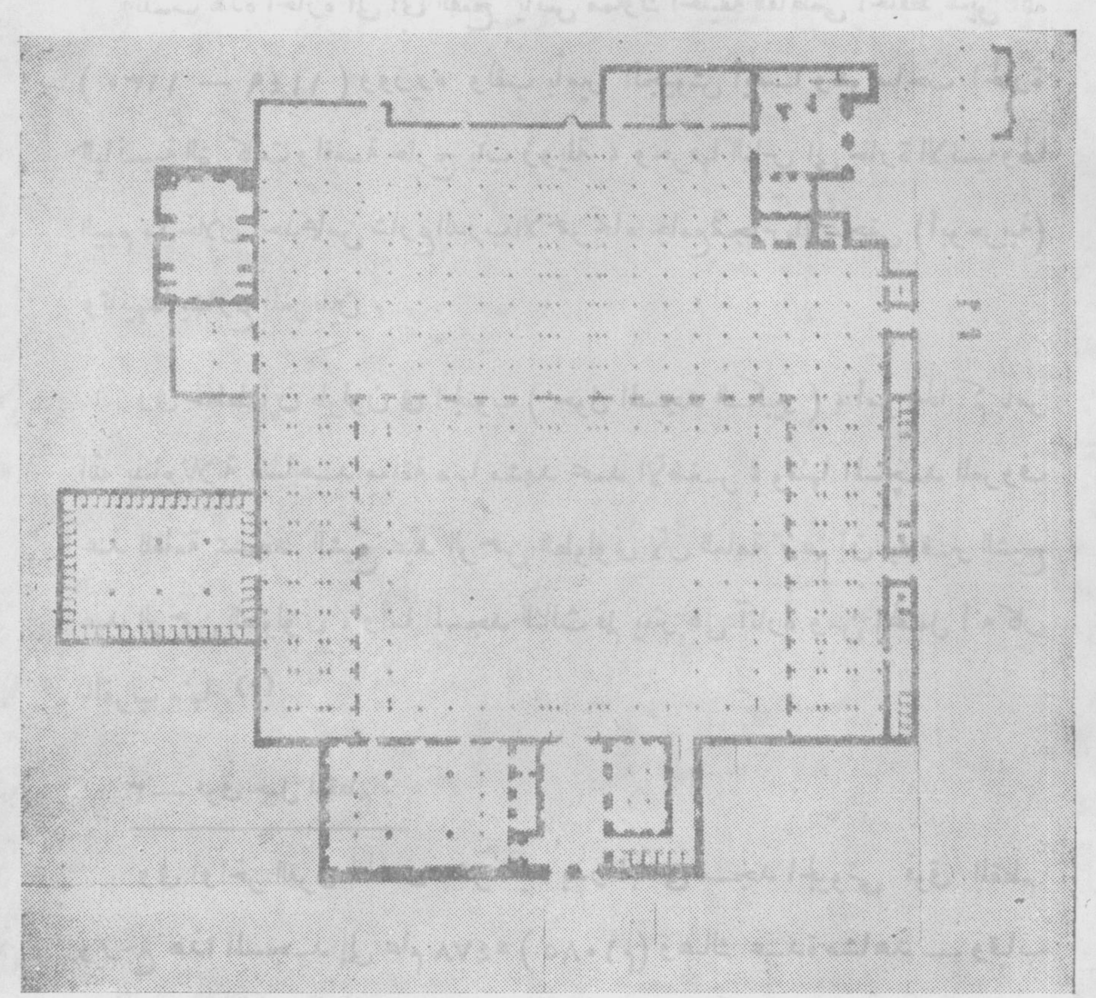
ويقول المقريزي في الخطط عن الحسينية : احداهما ماخرج من باب الفتوح ، وطولها من خارج باب الفتوح الى قرية الخندق [2] وهذه الشقة هي التي كانت مساكن للجند في أيام الخلفاء الفاطميين ، والشقة الأخرى ماخرج من باب النصر ، وامتد في الطول الى الريدانية (العباسية) ، وهذه الشقة لم يكن بها في أيام الخلفاء الفاطميين سوى مصلى العيد تجاه باب النصر وما بين المصلى الى الريدانية فضاء لا بناء فيه ، وكانت القوافل اذا برزت تريد الحج تنزل هناك ثم صارت هذه المنطقة مقابر أنشئت حول قبر بدر الجمالي الذي أقامه خارج باب النصر واستمر ذلك الى مابعد سنة سبعمائة هجرية (١٣٠٠ م) .

وفي زمن الحاكم بأمر الله أيضا أخذ الأهالي جنوب السور الجنوبي يعمرون ويبنون خارج أبواب زويلة والفرج . وكانت هذه الجهة حتى أوائل القرن الحادي

---

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى / ج ٤ ص ٤٥ .

(٢) على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج ٢ ص ٤٢ .



الأزهر ،مسقط أفقي

عشر غيرعامرة بالمبانى حتى مدينة القطائع الطولونية ، وسرعان مانهضت «ضاحية» امتدت تدريجيـــا حتى عظمت زمن المجاعــة العظمى فى أيام المستنصر لدين الله (١٠٣٥ — ١٠٩٤) حينما بدأ نجم الفسطاط فى الأفول .

٢ — حارة اليانسيــة :

تنسب هذه الحارة الى أبى الفتح يانس مملوك الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله (١١٣٠ — ١١٤٩) ووزيره ولقب بأمير الجيوش أيضـا وهو صاحب الحارة اليا نسية التى كانت واقعــة خارج باب زويلة ، وحرفها الناس الى حارة الانسية ولها اليوم مدخلان أحدهما من شارع الدرب الاحمر تجاه جامع قجماس الأسحقى (أبوحريبة) وثانيهما بشارع المغربلين .

وفى خطط ابن طولون فى الجنوب (حول المسجد الـكبير) ، أمر الحاكم بامر الله ببناء ثلاثة مساجــد معلقة منها مشهد محمد الأصغـر ، ومنها المسجــد المعروف عند العامة بمسجد الشيخ عبد الرحمن الطولونى لأن العامة تزعم أن به قـبر الشيخ عبد الرحمن الطولونى ، وأما المسجد الثالث فلم يعثر على آثاره ومن المحتمل أنه كان بالقرب منها .(١)

٣— فوق جبل المقطم :

وفى أواخر القرن الحادى عشر شيد بدر الجمالى مسجد الجيوشى فوق المقطم ويرجع هذا المسجـد إلى عام ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) وهناك عــدة مشاهد ـــ وقباب شيدت أيضا خارج قاهرة النواطم فى القرن الثانى عشر كمشهدى كلثم والسيدة رقية وقبة القاسم الطيب . وكان مسجد الصالح طلائع خاتمة المبانى الفاطمية التى شيدت خارج باب زويلة فى عام ١١٦٠ .

---

(١) على مبارك : الخطط جـ٢ ص٤٢ .

ولنرجع إلى ماذكره المقريزى فى خططه عندما أشار إلى ما بناه ، الفاطميون فى ظاهر القاهرة : « توسع الناس فى العمارة بظاهر القاهرة ، وبنوا خارج باب زويلة حتى اتصلت العمائر بمدينة الفسطاط ، وبنوا خارج باب الفتوح وباب النصر إلى أن انتهت العمائر إلى الريدانية (العباسية اليوم) وبنوا خارج باب القنطرة إلى حيث الموضع الذى يقال له بولاق حيث شاطىء النيل . وبنوا خارج باب البرقية والباب المحروق إلى سفح الجبل بطول السور فصار حينئذ العامر بالسكنى على قسمين أحدهما تقال له القاهرة وآخر يقال له مصر » .

(٤) ويبدو أن المقريزى نسى أن يذكر تاريخ هذا التوسع العمرانى ومتى حدث ولكن لم يفت على مؤرخنا الجليل أن يؤرخ التوسع الفاطمى التالى ، فيذكر لنا أنه فى عهد الخليفة الآمر بأحكام الله (١١٠١ — ١١٣٠) نادى وزيره محمد بن فاتك المعروف بالمأمون بن البطائحى بتعمير الخرائب والفضاء الذى يقع بين باب زويلة ومشهد السيدة نفيسة فنودى لمدة ثلاثة أيام بالقاهرة ومصر بأن «من كان له دار فى الخرائب أو مكان فليعمره ومن عجز عن عمارته يبيعه أو يؤجره من غير نقل شىء من أنقاضه ومن تأخر بعد ذلك فلا حق له فى شىء منه ولا حكر يلزمه » فلما نادى الوزير المأمون عمر الناس ماكان من ذلك مما يلى القاهرة من جهة المشهد النفيسى إلى ظاهر باب زويلة ، ولم يبق من العسكر ماهو عامر سوى جبل يشكر الذى بنى عليه جامع ابن طولون (٢) . ولكن فى أيام صلاح الدين الأيوبى حينما بدأ بناء قلعة الجبل (بعد ١١٧٦) أمر بهدم عدد كبير من مساكن تلك الضاحية ، ربما حرصا على الأمن ، وأقام على أرضها البساتين وأخذت تشغل المساحة الممتدة من باب زويلة إلى المشهد النفيسى حيث كانت تهابه تلك البساتين الخضراء .

---

(١) المقريزى : خطط ، ج ١ ص ٣٠٥

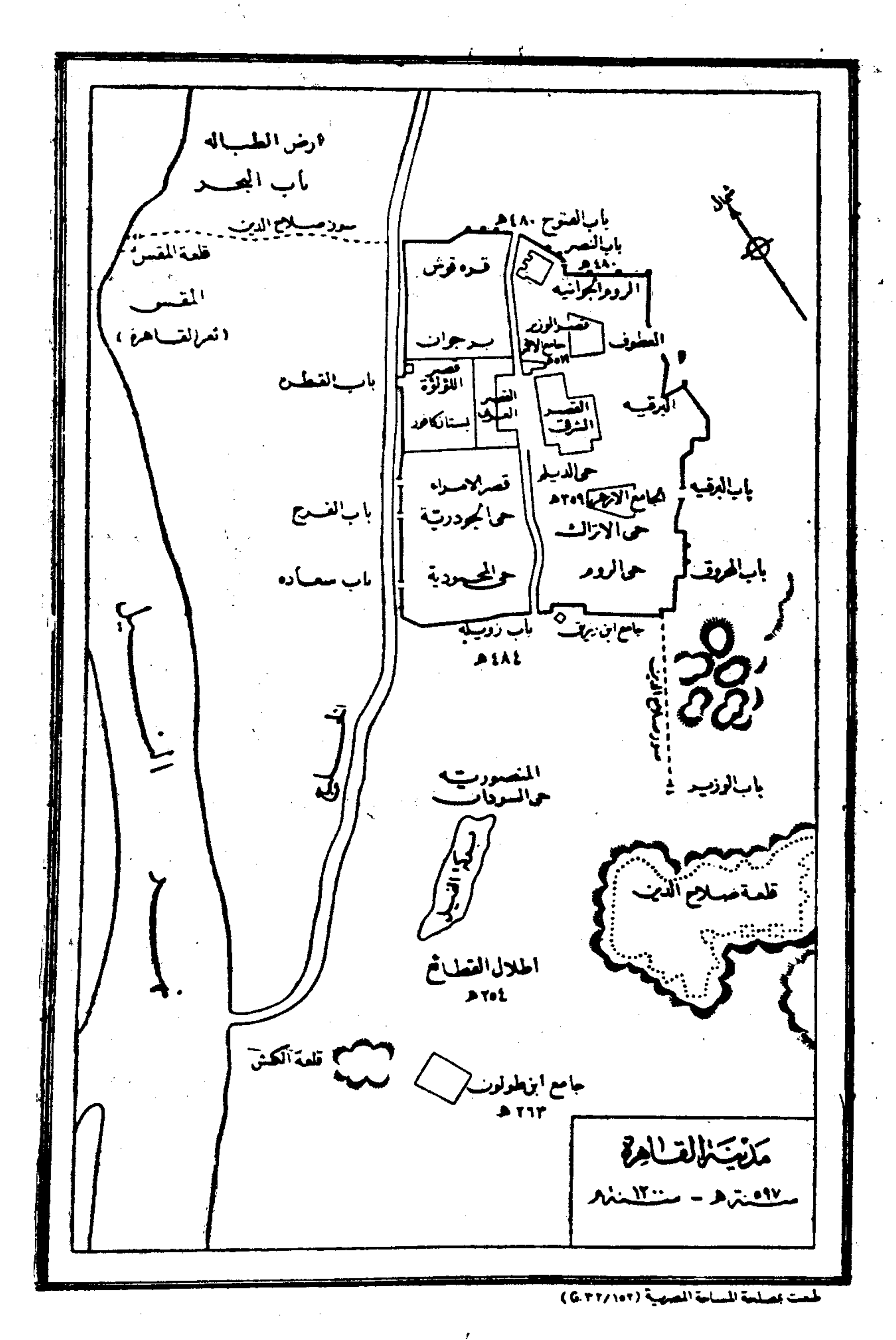
٥ — جزيرة الروضة :

وهناك فى أقصى الجنوب ، وأمام مدينــة الفسطاط حيث يجرى النيل تقابلنا جزيرة الروضة التى تتوسطه . وكان الولاة العرب قد عنوا بها وفى أثناء إمارة أحمد بن طولون (٨٧٠ – ٨٨٤ م) أعاد بناء أسوار الجزيرة وحصـــونها (٨٧٦ م) وجعلها مقرا لخزائن أمواله وشيد فيها الدور كما أقام فيها دار صناعة السفن الحربية وكانت مقر ديوان الجهد . وفى أيام محمـــد بن طغج الأخشيد أنشا بستانا وداراً سماها المختار .

ثم عرفت الجزيرة بالروضــة نسبة إلى البستان الذى أنشا فى نهايتها البحرية البحرية الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش وبدر الجمالى فى عام ٤٩٠ هـ (١٠٩٦) وسماه الروضة ، ويوضح هذا مبلغ عناية أحـــد الأمراء الفواطم بموقع الروضة التى مابرحت متنزها ملـكيا ومسكنا للاهالى .

طرح نهر النيل وظهور أرض جديدة :

طرأ على ساحل النيل الشرقى فى المسافة الممتـــدة من الفسطاط إلى روض الفرج تسع تغيرات على الأقل فيما بين عام ٦٨٨ م أى فى زمن حكم الدولة الأموية ، وعام ١٨٣٠ فى أثناء حكم محمد على . ويهمنا ونحن بصدد الحديث عن القاهرة فى العصـــر الفاطمى أن نشير إلى طرح النيل الثالث الذى ظهر حول سنة ١١٢٦ م فى أيام الدولة الفاطمية ، إذ طرح النيل أرضا جديدة كسبتها القاهرة وزاد فى عمرانهـــا ، وبذلك تحول شاطىء النيل الشرقى للمرة الثـالثة إلى الغرب فى المسـافة التى بين جامع الطيبى بشارع الديورة . وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عرابى بشـارع رمسيس . وقد نتج عن هذا الطرح المنطقة التى تقع فيها اليوم كلية تجارة عين شمس . ومبانى وزارة



أحياء القاهرة الفاطمية وامتدادها فى أوائل العصر الأيوبى

ملحوظة : صحة موقع باب الفرج فى السور الجنوبى وليس فى السور الغربى .

التموين القديمة) ووزارة البحث العلمي والري والصحة ومجلس الشعب والجامعة الأمريكية بالقاهرة وكلية البيسية ووزارة الأوقاف والبنك الأهلي ويمر فيها شارع شريف وامتداده إلى ميدان عرابي .

والآن ننتقل إلى المرحلة الثانية لتطور القاهرة في أيام الأسرة الأيوبية , وفي أيامها أخذت المدينة تتنازل عن مكانتها الارستقراطية التي تمتعت بها خلال قرنين .

٢ـ امتداد القاهرة أيام الأيوبيين

أصبحت القاهرة الأيوبية في آخريات القرن الثاني عشر ومستهل الثالث عشر تتميز عن ذلك القفر الملكي الفاطمي . وأضحت تشغل مساحة قدرها عشر أمثال ما كانت عليه ، فاحتوت على عدد كبير من المباني ذات الطابع الهندسي المستحدث، وصارت لها قلعة تشرف عليها فوق جبل المقطم ، وكان الفضل في هذه الانجازات لصلاح الدين الأيوبي . غير أنه مات قبل أن يراها ، بل شاهدها أشقاؤه وأبناؤه وأحفاده وعاشوا فيها .

قلعة صلاح الدين :

كان بناء القلعة فكرة ابتكرها هذا العاهل ، فقد شاهد في الشام أن لكل مدينة قلعة حصينة تحميها . فلم لا يكون أيضا للقاهرة قلعتها ، كما لها سورها . . .
وهنا ننقل ما كتبه عمادالدين كاتب السلطان صلاح الدين في هذا الشأن:

« كان السلطان لما ملك مصر رأى أن مصر والقاهرة كل واحدة منها سور يحميها ، فقال : أن أفردت لكل واحدة سورا احتاجت إلى جند كثير يحميها . وأني أرى أن أدير عليها سورا واحدا مع الشاطيء . وأمر ببناء قلعة في الوسط عند مسجد أسد الدولة على جبل المقطم » .



قطعة من سور القاهرة الشمالى

وأمر صلاح الدين ببناء القلعة فى عام ١١٧٧ ، فأقام على عمارتها الأمير الطواشى بهاء الدين قرة قوش الأسدى أحد أمرائه المخلصين ، ولم ينقض على العمل ست سنوات حتى نقش على الباب المدرج فى الجدار الغربى من القلعة النص التذكارى لبنائها وذكر فيه عام ١١٨٤ ، ومات صلاح الدين (١١٩٣) قبل أن ينتهى بناء جميع أسوار القلعة فاهمل العمل مدة إلى أن كانت سلطنة الملك الكامل محمد بن الملك العادل . فأتم البناء

سور حول القاهرة :

أراد صلاح الدين أن يجعل على القاهرة الفاطمية ومصر (الفسطاط والعسكر والقطائع والقلعة سورا واحدا يحيط المدينة الكبرى بأسرها فبدأ عمارة هذا السور الأيوبى (ويعتبر ثالث أسوار القاهرة عند الأثريين) عام ١١٧١ وهو يومئذ وزير الخليفة العاضد لدين الله وفى عام ١١٧٤ انتدب بهاء الدين قرةقوش الأسدى لعمل هذا السور . فبناه بالحجارة . وزاد فى سور القاهرة الغربى الجزء المتدمن باب القنطرة إلى باب الشعرية ومنه إلى باب البحر . ومن قلعة المقس فى نهاية السور الشمالى على النيل بجانب جامع المقس وانقطع السور من هناك [1] ثم زاد فى سور القاهرة الشمالى الجزء الذى يلى باب النصر إلى برج الظفر فى أقصى الشمال الشرقى للقاهره . ومن هذا البرج الذى مازال باقيا فى مكانه إلى باب البرقية فى السور الشرقى . ومنه إلى درب بطوط وإلى خارج باب الوزير ليتصل بسور قلعة الجبل فانقطع لوفاة صلاح الدين .

---

(١) كان أمل صلاح الدين أن يمد هذا السور إلى مدينة مصر حيث كانت مجرى المياه.



باب النصر

السور الغربي :

شرع صلاح الدين في سنة ٥٦٦ هـ في بناء السور الغربي للقاهرة على الحافة الشرقية للخليج المصرى في محاذاة سور بدر الجمالى وسور جوهر وعلى بعد قليل منهما إلى جهة الغرب . وأقام صلاح الدين فعلا قطعة من السور الغربي امتدت في النهاية الغربية لسور بدر الجمالي الشمالي واتجهت نحـــو الغرب إلى باب القنطرة الذى انشأه صلاح الدين في السور الغربي تجاه باب القوس الذى كان يعرف بباب الرماحين . لكنه أوقف العمل ورأى أن يزيد في سور القاهرة الشمالي ويمده إلى الغرب إلى شاطىء النيل الشرقي .

السور الشمالي :

شيد صلاح الدين قطعة من السور الشمالي غربي البرج المستدير الذى يقع على بعد ١٠٣ مترا غربي باب الفتوح ، وتمتد هـــذه القطعة عند برج كثير الاضلاع ثم تنحرف إلى الجنوب الغربي وتتجه ثانية نحو الغرب إلى أن تلتقي قويبا بشارع الخليج المصرى ، وقد ازيلت قطعة منها عندما شق شارع الجيش منذ ثلاثين سنة تقريبا . وتستمر هذه القطعة من السور إلى ما بين سكة الفجالة وشارع الطبالة حيث ما زالت توجد بقايا قاعدة برج مستدير ، كما بقيت اجزاء متناثرة من هذا السور وبرج ، يشهد على ذلك اسم شارع البرج عند ملتقى شارع الظاهر وشارع الفجالة . وامتد السور الشمالي إلى جهة الشرق حيث موقع برج الظفر ولا يزال يوجد من هذه الزيادة جزء من سور القسم الشرقي المجاور للبرج المذكورة .

السور الشرقي :

يمتد هذا السور من باب الوزير إلى درب المحروق ، ومن درب المحروق يمتد نحو الشمال إلى برج الظفر . وبه الباب الجديد وباب لبرقة وباب لبرقة وباب القراطين

(الباب — المحروق) ولايزال باقيا إلى اليوم اجزاء كثيرة من لسور الشرقى ، منها الجزء الذى يمتد جنوبى برج الظفر بطول أربعمائة متر ويقع فى هـــذا الجزء الباب الجديد ، وتمتد قطعة أخرى إلى قبيل باب البرقية ، وتختفى اجزاء كثيرة تحت كيان التراب ومن السور المذكور القطعة التى تبدأ من برج درب المحروق وتسير إلى الجنوب بطول ٧٦٠ إلى أن تنقطع خلف زاوية الشيخ مرشد بشارع باب الوزير ، وهذا الجزء هو أطول الاجزاء الباقية من السور الشرقى وحائطه أغلبه سليم إلى اليوم ، ومنه جزء آخر يمتد إلى الجنوب بين الخانقاه النظامية (وقد خربت اليوم) وبين بقايا جامع السبع سلاطين (خرب) وطول هـذه الجزء ١٢٥ م . وأما الباقى من السور الشرقى وهو الجزء الذى يمتد من قلعة الجبل إلى سور مدينة مصر ، فلم يتهيأ للسلطان صلاح الدين أن يقوم به .

السور الجنوبى :

لمـا مد صلاح الدين سور القاهرة الغربى إلى غربى السور الفاطمى ، جعل باب سعادة (الثانى) فى نهايته الجنوبية وشيد قطعة جديدة من السور الجنوبى القاهرة تصل إلى باب الفرج (الثانى) ثم التحقت بسور بدر الجمالى وباب زويلة .

أما سور الفسطاط الذى يبدأ من الطرف الجنوبى الغربى للقلعة إلى الفسطاط فلم يصل به إلى النيل ، وقد بقيت منه عدة ابراج لم يكشف عنها جيدا من الناحية الاثرية ، واحتوى هذا السور على كثير من الاماكن للمقودة المسقوف لتسهيل عمل المدافعين عن المدينة . ولايزال واحـــد منها قائما على بعد سبعين مترا جنوبى باب القرافة الذى فتحه الظاهر بيبرس فى حائط مجرى المياه وذلك ليسهل على أهل القاهرة الخروج بموتاهم إلى القرافة (جبانة المماليك وسيدى جلال والإمام الشافعى)

أبواب القاهرة الايوبية

نوجز الكلام الآن على أبواب قاهرة الايوبيين على ترتيب الأسوار :

١ ـــ أبواب السور الغربى ، من الشمال إلى الجنوب (٥٦٤هـ ــ ١١٦٩ م) :

(ا) باب القنطرة الثانى ٢ ـــ باب الخوخة ٣ ـــ باب سعادة .

(ب) أبواب السور الشمالى (٥٧٢ هـ ــ ١١٧٦ م) :

١ ـــ باب البحر (هدم حوالى ١٨٤٧) ٢ ـــ باب الشعرية (هدم حوالى ١٨٨٤) .

(ج) أبواب السور الشرقى (٥٧٢ هـ ــ ١١٧٦) :

١ ـــ الباب الجديد ٢ ـــ باب البرقية (تحت كيان الدراسة)

٣ ـــ الباب المحروق وبرجاه الجانبيان باقيان .

(د) أبواب السور الجنوبى للقاهرة (٥٦٤ هـ ــ ١١٦٩ م) :

باب الفرج الثانى (لايعلم متى خرب)

(هـ) أبواب سور الفسطاط (٥٧٢ هـ ــ ١١٧٦ م) :

١ ـــ باب القرافة (بعض اجزائه باقية) ٢ ـــ باب الصفاء (خربه الظاهر بيبرس) .

٣ ـــ باب الفسطاط (بعض مداميك ابراجه الجانبية باقية) .

وننتقل إلى الكلام على كل منها :ـ

باب القنطرة الثانى

شيده صلاح الدين فى عام ٥٦٩ هـ - ١١٧٤ م على الحافة الشرقية للخليج، وعرف بهذا الاسم لأنه يقع تجاه القنطرة التى بناها جوهر القائد على الخليج الكبير فى سنة ٣٦٢ هـ - ٩٧٢ / ٧٣ م (الخطط المقريزية - جـ ٢ ص ١٤٧)

باب الخوخة

شيد فى واجهة باب الخوخة الفاطمى ، ولا تعرف الظروف التى اختفى فيها هذا الباب . وكان يقع على مقربة منه مسجد باب الخوخة الذى يعرف اليوم بباب جامع القاضى يحيى زين الدين .

باب سعادة

عرف باب سعادة الأول بهذا الاسم لنسبته إلى أحد قادة المعز الدين الله الفاطمى سعاد بن حيان .

باب البحر

كان يعرف هذا الباب بباب المقس لوقوعه فى قرية المقس التى كانت يقال لها المقسم أو باب البحر لأنه كان يشرف على النيل ، ثم عرف باسم باب الحديد لأنه كان مركبا عليه بوابة من حديد ، ونسب اليه ميدان باب الحديد وكان هذا الباب يقع عند مدخل شارع فم البحر من جهة الميدان الذ لور وقد هدم حوالى عام ١٧٤٧ .

باب الشعرية

كان يقع بين باب البحر والخليج فى السور ، وقد نسب إلى طائفة من البربر يقال لهم بنو الشعرية (الخطط المقريزية جـ ١ ص ٣٨٢) ورسم هـــذا الباب

على خريطة القاهرة التى وضعها جران بك مدير التنظيم فى عام ١٨٧٤ على رأس سكة باب الشعرية التى تعرف اليوم بسوق الجراية ، وقد أزيل هـذا الباب فى عام ١٨٨٤ لخلل مبانيه ، وكان يعرف أخيرا باسم باب العدوى . لوقوعه تجاه جامع العدوى .

الباب الجديد

أحد أبواب السور الشرقى الصلاحى عرف باسم الباب الجديد لأنه كان أول باب أنشىء فى سور القاهرة الشرقى من الناحية الشمالية بعد باب النصر وله بدنتان كبيرتان. وقد كشفه الأستـاذ كريزويل الأثرى المعروف .

باب البرقية

من الأبواب الصلاحية ذكره المقريزى (ج ١ ص ٣٨٠) وتـكلم القلقشندى (صبح الأعشى ج٣ ص٣٥٤) بقى مدة طويلة مختفيا تحت كيان التراب حتى اكتشفه المرحوم على بهجت مدير الآثار العربية . ولايزال هذا الباب موجودا بأكمله ومحتفظاً بشكله الأصلى من الأساس إلى الشرفات وقد نسب الى جنود برقة فى الجيش الفاطمى ، وعرف أيضا بباب الغريب .

الباب المحروق

ذكره المقريزى (ج ١ ص ٣٨٣) والقلقشندى (ج ٣ ص ٣٥٤) وكان يعرف قديمـا باسم باب القراطين لأنه كان يوجد بجواره سوق للواشى والغنم وكان يجلس عنده القراطون الذين يبيعون القرط وهو البرسيم .

يمـكن أن نوجز أهم معالم القاهرة فى أيام الأيوبيـين فيما يلى :

(١) قلعة الجبل والسور :

كان لبناء القلعة والسور حول المدينة أثر كبير على امتداد العمران فى القاهرة الأيوبية ، ذلك لأن تركيز الإدارة الحكومية ومصالح الجيش فى القلعة نقل مركز ثقل المدينة إلى وسطها وجعل القاهرة الكبرى تنمو وتتوسع من ناحيتها الجنوبية حتى كاد الاتصال يتم بين القاهرة الأولى وبين الفسطاط والعسكر والقطائع ، وبخاصة بعد إنشاء عدد كبير من المدارس الدينية بالقرب من ضريح الإمام الشافعى ، وجامع عمرو بن العاص ، وفى القاهرة الفاطمية أيضا . كما أن امتداد السور الجديد إلى النيل من ناحية القاهرة الشمالية يسر توسيع القاهرة فى ذلك الاتجاه الجديد .

(٢) بركة الفيل :

تقع بركة الفيل خارج باب زويلة فيما بين القاهرة ومصر وشمال شرق ميدان السيدة زينب اليوم . ولم تكن بركة عميقة وإنما كانت تطلق فى أرض زراعية يغمرها ماء النيل سنويا زمن الفيضان وكانت تروى من الخليج المصرى وبعد نزول الماء تزرع أصنافا شتوية . تحولت أراضيها تدريجيا من الزراعة إلى السكن من سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٢ م) فى العصر الأيوبى ، ولم يبق من أرض البركة بغير بناء إلى عام ١٨٠٠ إلا قطعة أقيم عليها فيما بعد قصر عباس الأول والى مصر وهى المعروفة بسراى الحلمية وحديقتها وفى عام ١٨٩٤ قسمت أراضى الحديقة وفى عام ١٩٠٢ هدم القصر وقسمت أراضيه وبيعت وعرفت فيما بعد بالحلمية الجديدة .

كانت بركة الفيل تشغل من القاهرة الحالية المنطقة التى تحد اليوم شمالا بسكة

الحبانية ومن الغرب بشوارع درب الجماميز واللبودية والخليج المصرى، ومن الجنوب شارع عبد المجيد اللبان ، ثم يميل الحد إلى الشمال الشرقى حتى يتقابل مع أول شارع نور الظلام ويسير فيه إلى الشارع الألفى ، ومن الشرق تكملة شارع نور الظلام فشارع مهذب الدين الحكيم فسكة عبد الرحمن بك وما فى امتدادها إلى الشمال حتى تقابل الحد البحرى (محمد رمزى : النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ٣٦٦-٣٦٧) . وهكذا نلاحظ أن منطقة سكنية جديدة عمرت فى القاهرة على أيام الأيوبيين ثم ازدهرت كحى أرستقراطى فى أيام المماليك وبقيت على هذه الحال على أيام العثمانيين .

(٣) جبل يشكر ومناظر الكبش :

يطلق اسم الكبش على الركن الشمالى الغربى من جبل يشكر حيث النقطة الواقعة غربى جامع ابن طولون ولا تزال هذه المنطقة تعرف إلى اليوم باسم قلعة الكبش بشارع الشيخ عبد المجيد اللبان (مراسينا) سابقا . وفى أثناء سلطنه الصالح نجم الدين أيوب أنشأ عدة قصور جميلة على ذلك الجبل عرفت باسم المناظر وكانت تشرف من أعلى جبل يشكر على بركة قارون وبركة الفيل وعلى البساتين التى فى بر الخليج الغربى من المقس إلى فم الخليج ، والتى فى بره الشرقى من باب زويلة إلى الصليبة ، كما أنها كانت تشرف على النيل وجزيرة الروضة وقلعتها ، فكانت منتزهات جميلة يقصده الناس وقد تانق الملك الصالح فى بنائها . وما زالت بعد وفاة الملك الصالح من المنازل الملكية إلى أن هدمها الملك الأشرف شعبان بن حسين فى عام ٧٦٨هـ (١٣٦٦م) فحكر الناس الكبش وبنوا فيه المساكن .

(٤) جزيرة الروضة :

وفى أقصى الجنوب ، وفى مقابل النيل ، شيد الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٣٩م) قلعة الروضة أو قلعة الصالحية وقد شرع فى حفر أساس القلعة فى يوم الجمعة ١٦ شعبان ٦٣٨ هـ » وفى عاشر ذى القعدة وقع الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى كانت بالجزيرة وتحول الناس من مساكنهم التى كانوا بها وهدم كنيسة كانت لليعاقبة بجانب مقياس النيل وأدخلها فى القلعة وانفق فى عمارتها أموالا جمة ، وشيد فيها الدور والقصور وعمل لها ستين برجا وأقام بها جامعا وغرس بداخلها أنواعا شتى من الأشجار ، ونقل إليها عمد الصوان من المعابد القديمة ، وعمد الرخام وشحنها بالأسلحة وآلات الحرب وما يحتاج إليهما من الغلال — والازواد خشية محاصرة الفرنج ، فانهم كانوا حينئذ فى عزم أن يقصدوا بلاد مصر .

وذكر المقريزى أن مبانى القلعة امتدت إلى مقياس النيل من الجهة الجنوبية وموجز القول أن هذه القلعة كانت تشغل مساحة من الأرض لا تقل عن ٦٥ فدانا فى جنوب جزيرة الروضة . وقد سكن الملك الصالح نجم الدين هذه الجزيرة مع مماليكه وكانت عدتهم ١٠٠٠ مملوك بعد أن نقلهم من قلعة الجبل . واستمرت تلك الجزيرة عامرة حتى تولى السلطنة عز الدين أيبك فامر بتخريب القلعة ليعمر بها مدرسته المعزية التى كانت برحبة الحنة بمدينة مصر واقتدى به ذوو الجاه فاتخذوا كثيرا من سقوفها ونوافذها وغيرها، وبيع أخشابها ورخامها وأشياء جليلة .

٥ — قبة الإمام الشافعى :

لما توفى الإمام الشافعى فى سنه ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) دفن بتربة أولاد ابن عبد الحكم وفى عام ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) شيد السلطان صلاح الدين تربة الشافعى وبنى بجوارها المدرسة الإصلاحية ، وفى سنة ٥٧٤ هـ (١١٧٨ م) فرغ من عمل التابوت الخشبى الذى يعلو تربة الشافعى وهذا التابوت صنع من خشب الساج الهندى المقسم إلى حشوات هندسية منقوشة ومكتوبة عليها الآيات القرآنيه وترجمة حياة الشافعى واسم الصانع الذى قام بعمله وذلك بالخيط الكوفى والنسخ الأيوبى . ولما توفيت والدة الملك الكامل بن العادل سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) شيد الكامل قبة كبيرة ضمت إلى قبر الشافعى وقبر أولاد ابن عبد الحكم وأفراد الأسرة الايوبية ثم أوصل الماء إليها من بركة الحبش وكان الفراغ من إنشائها فى يوم الأحد ٧ جمادى الأولى سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١) ثم أنشأ تابوت من الخشب فوق تربة والدته لا يقل دقة عن تابوت الشافعى .

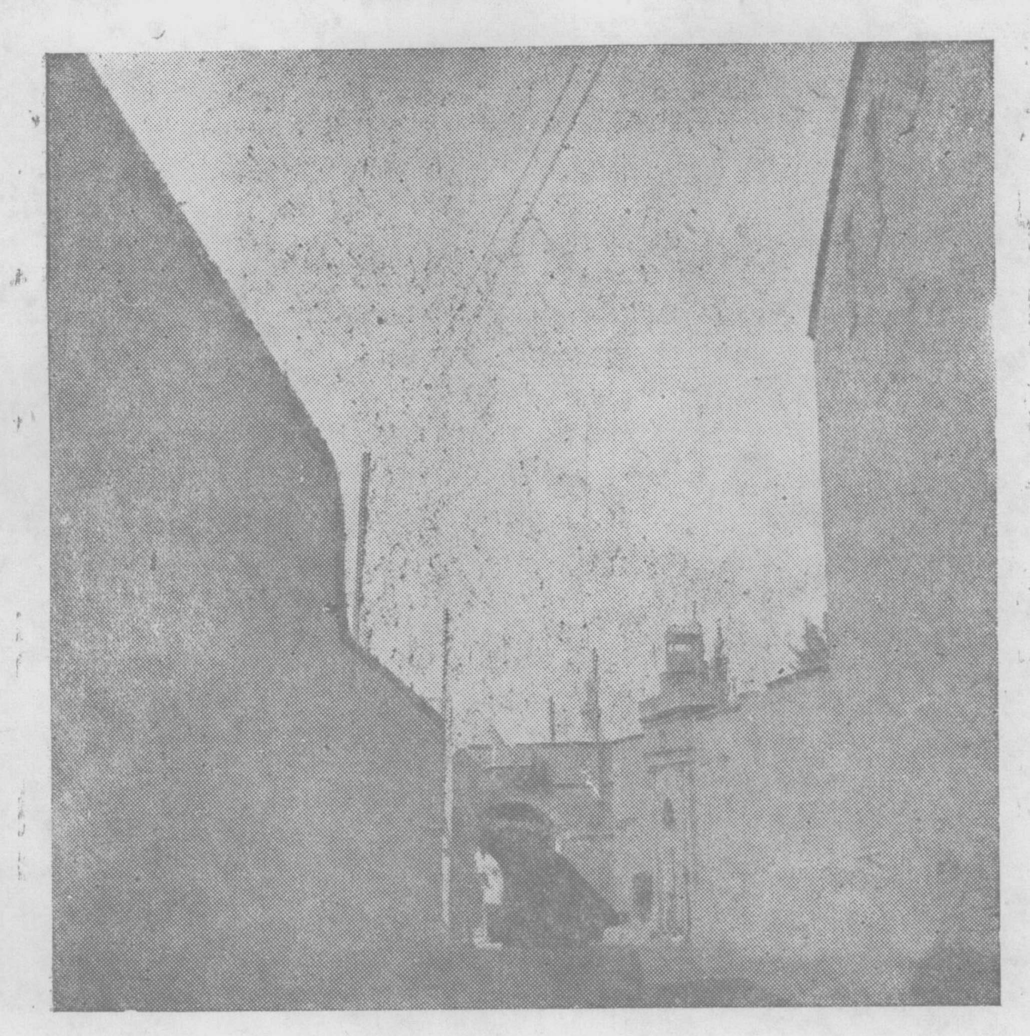
والملك الكامل محمد هذا هو منشىء دار الحديث الكاملية الجليلة فى النحاسين وكان ذلك فى عام ٦٢٢ هـ (١٢٢٥) وتقع بقايا الدار الكاملية على الجانب الغربى لسوق النحاسين وإلى الناحية الشمالية لمدرسة وضريح السلطان برقوق أمام منشآت الملك الصالح نجم الدين .

وتنسب إلى الملك الصالح نجم الدين الأيوبى للدرسة الصالحية التى وضع أساسها فى ١٤ ربيع الأول سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢) وبدأت الدراسة فيما فى العام التالى بالرغم من ضخامة بنائها وقد أقيمت على موضع القصر الفاطمى الشرقى ، وأول من درس بها قاضى القضاة شمس أبو بكر .

ومئذنة المدرسة نموذج فريد للمآذن الأيوبية ولها مكانتها من ناحية التطور المعماري المئذنة .

تلك ، كانت القاهرة الأيوبية الكبرى حينما استقبلت حكم دولة المماليك الأولى في أعقاب انتصار الأيوبيين في معركة المنصورة عام ١٢٥٠ م .

د . عبد الرحمن زكي



قلعة الجبل : ممر يؤدى الى باب العزب